الباب الرابع

عوامل التربية

إذا نظرنا إلى التربية بمعناها العام ، وهو كل نوع من أنواع النشاط يؤثر فى نمو قوى الطفل ، وتوجيهها ، وجدنا أن هناك عوامل كثيرة : فالطفل منذ يولد إلى أن يشب ويكتمل نموه العقلى ، والجسمى ، ويشيخ ، ثم يموت ؛ خاضع لكل ما من شأنه أن يؤثر فيه ، ويضيف إلى خبراته وتجاربه ، ويكيف من سلوكه ، ويغير من تربيته ، فهذا التغيير المستمر طول العمر ، الطارئ فى كل لحظة من لحظات الحياة إن هو إلا نتيجة لعوامل خارجية ، تؤثر فى استعداد الطفل الوراثى ، وطبيعته ، وقواه . فلدينا الطفل المزود بقوى فعالة ، ذات خصائص موروثة ، هى خصائص النوع ، وخصائص الأسرة . ولدينا — أيضاً — البيئة المحيطة بالطفل ، والتى لا تفتأ تتفاعل مع قواه ، أو قوى الكبير ، فتحدث تغييراً هو التربية . فما هذه العوامل ؟

إنها الشمس ، والهواء ، والضوء ، والحرارة ، وما يسمعه الطفل ، ويلمسه ، ويطعمه ، والأسرة التى يعيش فيها ، والمنزل المادى ، وما فيه من عوامل الراحة ، والصحة ، أو عدمها ، والشارع الذى يعيش فيه ، والأطفال الذين يلاعبهم ، والقرية بعاداتها ، وتقاليدها ، ومواسمها ، وأعيادها ، وحفلاتها ، أو المدينة — إن كان يسكن مدينة — والأمة التى ينتمى إليها ، بقوانينها ، وتقاليدها ، وعلاقاتها الدولية ، وحياتها الاقتصادية ، وتاريخها ، وآدابها ، وثقافتها ، وفنونها ، وآمالها ...[1] بل إنها كل العوامل التى تؤثر فى الطفل — أو فى الكبير — من خارج أمته . ففى العصر الحاضر لم تعد البيئة مقصورة على البيئة المحلية القريبة ، التى كانت فى الماضى تقف عند حدود القبيلة ، أو الشعب ، بل صارت الآن تمتد فتشمل العالم أجمع ؛ لأن العالم فى عصرنا الحاضر صار قوى الارتباط بعضه ببعض . فالطفل الجالس بمنزله فى إحدى القرى المصرية قد يسمع حديثاً يذاع بالعربية من لندن ، أو نيويورك أو الصين ، أو أى بقعة

(١) ص ٤ من كتاب "Education to day by J. Dewey".

نائية فى العالم . والطفل العربى يقرأ الآن من الكتب والمجلات ما يكون قد طبع فى أمريكا ، أو اليابان ، أو جزر الهند الشرقية . وهو يرى فى مدرسته أو فى السينما ، أفلاماً عن الطفل الفرنسى ، أو الأمريكى ، أو الصينى ، أو عن حياة الشعوب الأخرى ، أو عن صناعة من الصناعات ، أو أى نوع من أنواع الحياة الحيوانية ، أو الجمادية ، فهو إذن يعيش فى غير بيئته المحلية .

ووسائل الحياة المادية لم تصبح إنتاجاً محلياً ، بل أصبح العالم جميعه يشترك فى إنتاج وسائل الحضارة ، ويكفى أن تنظر إلى ما تلبس ، أو إلى ما حولك من أدوات وأمتعة ، وطرق مواصلات ، لتعرف مقدار ما أنتجته أمم غير أمتك ، وأثر هذه المنتجات فى حياتك وتربيتك .

كل هذه العوامل تؤثر فى تربية الطفل ، والمراهق والبالغ ، بل الكهل ، والشيخ إذا اعترفنا بأن التربية تستمر من المهد إلى اللحد .

وهذه العوامل بعضها مادى ، وبعضها معنوى ، أو بعضها طبيعى ، وبعضها اجتماعى ، ولا شك فى أن للعوامل الطبعية ، والاجتماعية المختلفة ، آثاراً مختلفة فى تربية الطفل فالجو مثلا — وهو من العوامل الطبيعية — ذو أثر فى النمو الجسمى والعقلى . فأطفال المناطق الحارة أسرع فى النضج من أطفال المناطق الباردة أو المعتدلة . وسكان المناطق الحارة أميل إلى الكسل والخمول ، من سكان المناطق الباردة ، أو المعتدلة . وللمناطق الحارة أمراض خاصة بها ، غير أمراض المناطق الباردة . وحياة الفرد الوجدانية تتأثر بدرجة الحرارة . فأهل المناطق الحارة سريعو الغضب ، والانفعال ، طائشون ، بعكس أهل المناطق الباردة ، الذين يغلب عليهم الاتزان ، والصبر ، والاحتمال ، والتأنى . ولطبيعة المكان الذى يعيش فيه الإنسان أثر فى حياته الجسمية ، والعقلية ، والخلقية . فسكان الجبال — مثلا — أكثر صحة ، ونشاطاً ، وقوة ، من سكان الوديان ، وهم أكثر جرأة ، وقدرة على مواجهة الأخطار ، والحروب ، ومقاومة الاعتداء ، من سكان الوديان . وسكان الجزر — لعزلتهم وبعدهم عن سكان القارات — أكثر احتفاظاً بالتقاليد ، وبعداً عن التطورات الحديثة ، وأشد ريبة فى الأجانب ، وعدم ثقة ، كما كانت الحال فى اليابان وفى إنجلترا .

ولسكان الصحارى خصائص جسمية ، وعقلية ، وخلقية ، تخالف

خصائص سكان الوديان أو الحضر ؛ فأجسامهم أصح ، وأقوى على تحمل تقلبات الزمن من جوع ، وعطش ، وحر ، وبرد ، وخيالهم أكثر حرية من خيال سكان المدن ، والوديان ، وإن كان أقل خصوبة . وهم أهل كرم ، وحمية ، ودفاع عن الجار ، والمستجير ، بحكم طبيعة حياتهم فى الصحارى .

هذه كلها عوامل طبيعية ، لها أثر مباشر فى نشأة الفرد ، وتربيته ، وحياته ، كما أن لها آثاراً غير مباشرة ؛ فطبيعة البلاد ، ومناخها ، وموقعها الجغرافى ؛ كل هذه تؤثر فى حياتها الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، وهذه بدورها عوامل اجتماعية ، تؤثر فى نمو الطفل ، وتربيته . ألا ترى كيف أثر مناخ الجزر البريطانية فى تقدم صناعة النسيج بها ؟ وأثر قيام هذه الصناعة فى حياة البلاد الاقتصادية ، وفى نوع التعليم المهنى لسكان منطقة منشستر وغيرها من المقاطعات التى تعنى بصناعة النسيج ؟ وألا ترى كيف أثر موقع مصر الجغرافى فى جعلها مهبط كثير من جاليات العالم التى استقرت بها ، ونشرت حضارتها ، واقتصادها ، وأديانها ، وثقافتها ؟ وكيف أثرت طبيعة بلاد لبنان ، وموقعها بجوار البحر فى حياة سكانها ، فجعلت منهم المهاجرين المغامرين ، الذين كانوا فى طليعة من هاجر إلى أمريكا من الشرق ؟

وإذا كانت العوامل الطبيعية ذات آثار مباشرة ، وغير مباشرة فى تربية الفرد ، فللعوامل الاجتماعية آثار أيضاً ذات أهمية . ومن العوامل الاجتماعية نظم البلاد الدينية ، والاقتصادية ، والقضائية ، والإدارية ، وتقاليدها ، ونظرتها للحياة ، وتقديرها للفنون .

والنظم الاجتماعية ليست شيئاً حديثاً فى الجماعات ، بل لكل جماعة نظمها التى تطورت معها منذ تكونت هذه الجماعة ، وصار لها تاريخ مشترك . وهذا الاشتراك فى نظام من نظم الحياة ، يجعل الفرد يقبل ، بطريقة شعورية أو لا شعورية — مستلزمات هذا النظام ، فللأديان — مثلا — مواسم ، وتقاليد ، وتاريخ مرتبط برجالها ، وهذه كلها يعيش فيها الطفل ، ويتأثر بها ، فتطبع طريقة تفكيره وسلوكه . وإن مقارنة بسيطة بين تأثير أحد الأديان — كالمسيحية مثلا — فى معتنقيها ، وتأثير دين آخر ، كالإسلام أو اليهودية ، فى معتنقيهما ، لترينا كيف يلون الدين تفكير صاحبه ووجدانه وسلوكه بلون خاص به .

وكذلك الحال مع نظام المجتمع القضائى ، وأثره فى أنواع الجرائم والعقوبات ، شدة وسهولة . واحترام الناس للقضاء ، أو عدم احترامهم إياه ، له أثره فى سلوك الأفراد ، وتربيتهم[١] ، وهكذا نستطيع أن نجد فى كل نظام من نظم المجتمع آثاراً واضحة فى تكوين المجتمع باعتباره عاملا من عوامل التربية .

ونستخلص مما تقدم أننا إذا قصدنا بالتربية معناها العام ، كانت لها عوامل عامة كثيرة ، هى كل ما يحدث أثرا فى الطفل ، حتى ولو كان تجربة عارضة . وإذا قصدنا بالتربية معناها الخاص : أى التربية المقصودة المنظمة ، انصرف تفكيرنا إلى أنواع النشاط المقصودة المنظمة ، التى يقوم بها المنزل أو المدرسة لتربية الطفل . فالطفل ، باعتباره كائناً حياً ، معرض لكل العوامل المحيطة به ، يتأثر بها — كما قلنا — نتيجة لما يحدث من تفاعل بين قواه وبين هذه العوامل العامة . وهو فى الوقت نفسه خاضع لعوامل مقصودة تريد له تربية خاصة مقصودة ، تربية واضحة الهدف ، تربية معروفة فى ذهن المسئولين عن الطفل ، كالآباء والمدرسين . وهذه التربية مقصورة على أنواع النشاط المنظم المقصود ، الذى يوجه للطفل فى المنزل والمدرسة . وإذن فعوامل التربية المقصودة هى المنزل (الأسرة) والمدرسة ، ولما كان كل من المنزل والمدرسة جزءاً من المجتمع الذى يعيش فيه الطفل ، والذى سيخرج إليه عندما تنتهى مرحلة طفولته ، ويقوم بدوره فيه ، عضواً عاملا منتجاً ؛ ناسب أن نتكلم عن كل العوامل الثلاثة على حدة .

ويفرق المربون بين العوامل المقصودة وغير المقصودة بأن الأولى هى التى يمكن ضبطها وتكييفها ، وهى التى يراد بها فعلا تربية الطفل بصورة إرادية ، بينما غير المقصودة هى التى لم يقصد بها فى الأصل أن توجه تربية الطفل ، ولكنها فى الواقع ذات أثر فى ذلك . فالمجتمع مثلا صغيراً كان أو كبيراً ، قرية أو مدينة أو قطراً — له آثار فى تكوين الطفل كما أشرنا من قبل ، ولكنه لا يعد عاملا مقصوداً ، غير أنه لأهميته يعتبر عاملا أساسياً فى التربية . ولهذا سنتعرض له هنا بشىء من التفصيل .

---

(١) يلاحظ ذلك بيناً فى الولايات المتحدة ؛ فلكل ولاية نظامها القضائى . ولذلك يهاجر بعض الناس من ولاية إلى أخرى للتقاضى أمام محاكمها فى مسألة لا يتاح لهم حلها فى محاكم ولايتهم . مثال ذلك الطلاق فهو سهل فى بعض الولايات ومتعذر أو مستحيل فى ولايات أخرى .

العوامل الأساسية فى التربية

١ — المجتمع

لعله يجدر بنا قبل التعرض لأنواع المجتمع أن نذكر شيئاً عن كيفية تكوين المجتمع بصفة عامة ، والظروف التى تساعد على قيام الصلات بين أفراده .

من البديهى أنه متى اجتمع أفراد متآلفون نشأت بينهم روابط متبادلة تدفعهم إلى التعاون فى مجهوداتهم ، وألوان نشاطهم ، وينتهى تعاونهم هذا إلى نتائج ما كانت لتظهر لو ظلوا متفرقين . وإذ بتضامنهم يتضاعف إنتاجهم ويتغلبون على صعوبات فى البيئة التى يعيشون فيها والتى قد يصعب على الفرد التغلب عليها وحده ، وتتحسن أحوالهم ، وتنشط أذهانهم للتفكير فيما يترتب على حياتهم الجمعية من مظاهر وآثار . فالفرد العضو فى المجتمع يأتى من الأعمال ، ويبدى من الآراء ، ما لا يفعل لو بقى خارج نطاق الجماعة . وكلمة مجتمع Social Group . تطلق على مجموعة من الناس رجالا ونساء تربطهم بعضهم ببعض صفات مشتركة ذات أثر فى حياتهم الاجتماعية والفردية . وليس مجرد وجود هذه الصفات كافياً لتكوين المجتمع ، بل يجب أن تكون هذه الصفات ، سواء كانت قائمة بالفعل أو بالقوة ، الأساس للوعى المشترك بينهم أو للمصالح المشتركة ، وأن يكون لها أثر فى قيام نظام يرمى إلى أهداف مشتركة . وتقرر الظروف عادة ما إذا كانت الصفات القائمة بالقوة ستظهر إلى حيز الفعل أو لا. فقد لا يكون لهذه الصفات أثر فى خلق الوعى المشترك أو النظام المشترك ، ولكن قد تصبح هذه الصفات أساساً لوعى مشترك قوى ، ونظام مشترك فعال . وقد يكون بين مجموعة من الناس صفات مشتركة فى المهنة أو الظروف الاقتصادية ، ومع ذلك يظهر — أو لا يظهر — فيهم وعى مشترك أو نظام مشترك على أساس هذه الصفات . نعم قد يكون لهم وعى قوى ولكن لا يصحبه نظام هام . وذلك مثل الجيران والطبقات الاجتماعية كطبقة العمال والمدرسين . ونفهم مما سبق أن كل المجتمعات ليست متشابهة وعلى هذا يمكن تقسيمها إلى :

(ا) الجماعة العارضة Crowd group وهى التى ليس بين أفرادها وعى مشترك وهى جماعة غير مستقرة ولا مستمرة وغير مقصودة وتلقائية .

وذلك كالعابرين فى الطريق ، والمجتمعين فى محطة السكك الحديدية ، وركاب الترام ، ورواد السينما ، وهؤلاء لا يلبثون أن ينفضوا إذا انتهت مدتهم العابرة .

(ب) المجتمع الذى بين أعضائه صفات مشتركة ينتج عنها وعى مشترك ونظام مشترك أيضاً وهذا يمكن تقسيمه إلى نوعين :

١ — مجتمع النادى Club type . وهو نوع من المجتمعات المستقرة، ولكنه غير تلقائى . وذلك كأعضاء جمعية أو حزب أو شركة أو هيئة قضائية ، فأمثال هذه المجتمعات مستقرة وقد يكون ثباتها قصيراً أو طويلا .

٢ — المجتمع المتماسك Community Type . وهو نوع من المجتمعات المستقرة الدائمة التلقائية ، كالأسرة والقرية والمدينة والأمة . ويتميز هذا النوع أيضاً بأن له وعياً مشتركاً ونظاماً مشتركاً ، ذا صور مختلفة : كالنظام الاجتماعى أو القضائى أو الاقتصادى أو الإدارى . وأفراده يسيرون على أساليب خاصة فى معيشتهم ، ويشتركون فى كثير من الطقوس الدينية ، وتربطهم صلات كبيرة من اللغة والخلق ، وطريقة التفكير ، والذوق ، وتربطهم أيضاً آمال مشتركة .

(حـ) المجتمع الذى تربط أفراده صفات مشتركة ووعى مشترك ، ولكن لا يضمهم نظام شامل كالطبقات الاقتصادية ، وبعض الطوائف المذهبية Class or sect . ومن البين أنه لا حدود تمنع من تدخل بعض هذه الجماعات فى بعض . ويسمى بعض علماء الاجتماع النوعين الأول والثالث ا ، جـ مجتمعات بالقوة لا بالفعل . ومن الأنواع السابقة يظهر أن المجتمعات تتطور من مجتمعات تربطها مجرد الضرورة والمصادفة ، إلى مجتمعات ترابط بالاختيار المطلق والقصد . فالعضو فى أمة من الأمم تربطه بها : —

أولا : مجرد الضرورة لأنه ولد فيها مثلا ، ثم تأتى بعد ذلك روابط أخرى . وقد يغير الفرد رعويته ، وكذلك الحال فى المجتمع الدينى ، فالطفل يولد ولا دين له وإنما يلصق به الدين عن طريق الوالدين ، وقد يغير دينه إذا كبر . وكذلك الحال فى عضويته فى طبقة من الطبقات الأرستقراطية أو الديمقراطية . وأحياناً تكون عضوية المجتمع أمراً اختيارياً كالأندية ، والجمعيات الرياضية ، والعلمية ، والأحزاب السياسية .

وإذا كانت جماعة بشرية متوطدة الأساس ، مستقرة ، ولها خصائص مشتركة ومصالح مشتركة وأعضاؤها يجمعهم وعى مشترك ، ولهم نظام يربطهم جميعاً — فهذه الجماعة تستمر بما لها من خصائص مميزة ، بالرغم من تغير أفرادها بمرور الزمن ، والمجتمعات تختلف كثيراً فى حجمها وعمرها ومقدار تأثيرها وعمق هذا التأثير ، فهى من حيث الحجم تختلف من أسرة صغيرة إلى أمة كالأمة الصينية ، ومن حيث العمر تختلف من أمة حديثة التكوين مثل تشيكسلوفاكيا إلى أمة عريقة كمصر ، أمة ذات تاريخ قديم . ومن حيث التأثير قد يكون التأثير فى العضو جزئياً مثل نادى التنس ونادى الفنون ونادى الصحافة وما شابه هذه المجتمعات التى لها تأثير فى ناحية معينة ، وقد يكون التأثير كبيراً شاملا كما فى مجتمع الدولة . ومن حيث العمق قد يكون التأثير سطحياً أو عميقاً كالانتماء إلى حزب سياسى أو دينى . والمدرسة تشبه (مجتمع النادى) إذا كانت خارجية (والمجتمع المتماسك) إذا كانت داخلية .

الشروط الواجب توافرها فى المجتمع المنظم المتماسك :

ذكر مكدوجال فى كتابه The Group Mind العقل الجمعى أهم هذه الشروط . ونحن نلخصها فيما يأتى :

١ — أن يكون بالمجتمع استمرار مادى أو شكلى (صورى) أو هما معاً . فالمادى معناه أن يتصل أعضاؤه أنفسهم بعضهم ببعض لمدة طويلة من الزمن ، وذلك كالأسرة والأمة . والشكلى معناه أنه بالرغم من وجود تغيير سريع نسبياً فى الأعضاء لا يزال هؤلاء الأعضاء متمسكين بالعادات والتقاليد التى لهذا المجتمع ؛ فهم يتخذونها ويحترمونها . فالمدرسة مثلا تكون مجتمعاً أعضاؤه متغيرون مادياً ، ومستمرون معنوياً أو شكلياً . وبالرغم من هذا فاللوائح ونظام العمل والتقاليد تظل غالباً باقية ثابتة متصلة ، وكذلك العمال فى المعمل الواحد قد لا يعرف بعضهم بعضاً ومع ذلك يعلمون تقاليد العمل ونظمه وبذلك يكونون مجتمعاً ، أما المسافرون فى القطار فلا اتصال مادياً بينهم بالمعنى الصحيح إلا إذا حصل ما يخلق مصلحة مشتركة أو هدفاً مشتركاً ، كأن يتعطل القطار فى الطريق ، أو ينقطع النور ، أو يفكرون فى طلب ترخيص الأجرة . وقد يترتب على طول

سفرهم فى عربة واحدة واحتكاك بعضهم ببعض ، وتبادل التحية يوماً بعد يوم — استمرار مادى ينتج عنه وعى مشترك .

٢ — أن يكون لدى أعضاء المجتمع فكرة عن وجود هذا المجتمع ، وخصائصه المميزة له ، ومكوناته ، ووظيفته ، وعلاقة الأفراد به . وقد اخترعت المجتمعات كثيراً من الوسائل التى بها يتمكن أعضاؤها من معرفة خصائصها المميزة لها كالعلم الواحد ، والسلام القومى ، وجواز المرور ، ولبس شارة خاصة أو زى خاص ، ومراعاة أعياد ومواسم خاصة . وهذه كلها تساعد على تقوية الوعى الجمعى . والمدرسة تستطيع أن تقوى هذا الوعى بما تخلقه من رموز خاصة بها كالنشيد ، أو الزى ، أو الشارة أو العلم أو نوع التحية .

٣ — أن يقوى الوعى الجمعى وينمو عن طريق الاتصال والاحتكاك بالمجتمعات الأخرى ، ولا سيما فى وقت الحروب والتنافس ، وإنها لحقيقة بغيضة أن نقرر أن كراهية أفراد أى مجتمع من المجتمعات للأجانب ، وخوفهم منهم ، كان له أثر ظاهر فى تقوية الشعور القومى تقوية هى أشد فى الواقع من عامل حب الفرد لوطنه فى الوقت العادى . ونحن نلاحظ هذا فيما يقوم بين المذاهب الدينية من خلاف ، وكذلك فيما يحدث بين الأحزاب السياسية . والمنافسة بين المدارس والكليات من العوامل التى تزيد شعور التلميذ بعضويته فى مدرسته فيفرح لانتصارها فى مباراة من المباريات ويتألم لهزيمتها ويخجل .

٤ — أن تتكون للمجتمع تقاليد نتيجة لمرور الزمن ، فتنمو عند أعضائه عواطف تلتف حول هذا المجتمع . فالمبانى تصبح ذات ذكريات ، والزعماء تصير لهم قداسة الشهداء ، وتروج حولهم الأساطير ، وتنمو للمجتمع آداب وعادات . وعلى هذا فوجود المجتمع ليس شيئاً مادياً محضاً ، ولكنه مصحوب أيضاً بنمو العواطف والتاريخ المشترك والآداب . وهذا النمو يتناسب تناسباً مطرداً مع مرور الزمن ، فالأمة القديمة ذات آداب وتقاليد وتاريخ عريق ، والمدرسة أو الجماعة القديمة تفتخر بتقاليدها القديمة ، وتحرص على المحافظة عليها .

٥ — أن يقوم فى هذا المجتمع نظام محترم يضمن للفرد سلامته وحريته ، وللجماعة أداء وظيفتها باطمئنان . وهذا النظام يجب أن يتناسب مع حياة الجماعة نفسها وينمو معها حتى لا يثوروا ضده . ولذلك كان خير النظم الحكومية هو النظام

الديموقراطى الذى يعبر عن رأى الأفراد فى الطريقة التى يريدون أن يحكموا بها وفى المجتمعات المنظمة المتماسكة وسائل لإعلام الأفراد بما يجرى وبما يهمهم، وطرق لدراسة الأمور الهامة وبحثها والتشاور فيها ، وأخذ قرارات تعبر عن رأى الأغلبية . وتلك هى الحال فى الأندية التى تسن لها دستوراً ، وتكون مجالس إدارة ، ولجاناً لتنفيذ قواعد هذا الدستور . وكذلك الحال فى المدرسة فلا بد أن يكون لها نظام محترم دقيق التنفيذ . وخير النظم ما كان ملائماً لحالة التلاميذ يطيعونه بنزعة منهم ، وتقدير له ، بدلا من طاعة الإكراه والالتزام . وفى المدارس الثانوية بأمريكا وإنجلترا جرب اشتراك التلاميذ فى وضع لوائح المدرسة ونظامها فشعر التلاميذ[1] بأنهم مسئولون عن هذه اللوائح . ولذلك كانوا يعبرون فى سلوكهم عن احترامهم لها ، وكلما كان النظام منبعثاً من الداخل وعن رغبة من التلاميذ وفهم لقيمته كان أكثر جدوى ، وكان ناتجاً عن الحكم الذاتى .

هذه هى خصائص المجتمع المنظم المتماسك . وهى لا شك خصائص المدرسة الحديثة باعتبارها مجتمعاً صغيراً . فإذا أرادت المدرسة أن تكون مجتمعاً منظماً يعيش فيه الفرد كما يعيش فى المجتمع الأكبر (الأمة) وجب أن تحرص على توافر هذه الخصائص فيها . وكما أن الأمة تحتوى على جماعات أخرى أصغر منها تنشأ فيها ، وتقوم بوظائف مختلفة ولها أهداف مختلفة ، كذلك تحتوى المدرسة على جمعيات وفرق وأندية فى داخلها ، هى مؤسسات منظمة لها قواعدها وأهدافها وسياستها .

والتلميذ الذى يساهم فى حياة المدرسة الطبيعية المنظمة باعتباره مواطناً صالحاً فيها . سيجد نفسه عند ما يخرج للحياة العملية فى المجتمع الأكبر مواطناً صالحاً كذلك . وأعضاء المدرسة يكونون مجتمعاً من نوع مجتمع النادى إذا كانوا خارجية فإن كانوا داخلية فمجتمعهم من نوع الجماعة المتماسكة كما ذكرنا .

والتلاميذ الذين فى مدرسة فى وقت واحد يكونون مجتمعاً مستقراً ثابتاً مستمراً إلى حد ما . وهم خاضعون لمؤثرات ولوائح ونظم ، وهذه النظم قد وضعت المدرسة جزءاً منها ، والجزء الآخر وضعه التلاميذ أنفسهم بطريق مباشر أو غير مباشر . وقد يكون خريجو المعهد الواحد مجتمعاً ، ويكون الاتصال بينهم شكلياً ،

---

(١) انظر كتاب : The School. وكذلك كتاب Education for Sanity, by W. Curry.

وربما قويت الصلات بين أعضاء هذا المجتمع بظهور وعى مشترك ، ووجدان مشترك ، ومصلحة مشتركة بل نظام مشترك ، كما هو الحال فى جمعيات المعلمين المتخرجين من معهد واحد . ولما كانت الصلة وثيقة بين المدرسة والمجتمع ، وكانت المدرسة تعد أبناء الشعب ليخرجوا أعضاءً مواطنين فى مجتمعهم ، ناسب أن نذكر شيئاً عن الصلة بين المدرسة والمجتمع .

العلاقة بين المدرسة والمجتمع وكيف يتعاونان :

من المستحيل فصل المدرسة عن المجتمع إذ أن المجتمع يتكون من أفراد لهم عادات وتقاليد ونظم مشتركة ، والمدرسة تتلقى أبناء هذا المجتمع وتهيؤهم لأن يحتلوا مكانهم فى المجتمع كأعضاء ومواطنين صالحين لأن يعيشوا فيه مع غيرهم . فهى إذن تعد له ، بخلق جو وبيئة لها من العادات ، والتقاليد ، والقوانين ، والنظم ، ما لا يتنافى مع المجتمع الخارجى . ولهذا تنظر التربية الحديثة إلى المدرسة باعتبارها مجتمعاً صغيراً شبيهاً بالمجتمع الكبير الذى تقوم فيه . ويقول (جون ديوى) فى هذا : إن الفشل الكبير فى التربية اليوم يرجع إلى إهمال مبدأ أساسى هام هو أن المدرسة ما هى إلا مجتمع صغير ، وأن الطفل يجب أن ينشط ويوجه فى عمله وتفكيره عن طريق حياته فى هذا المجتمع ، وقد أخذت المدرسة على عاتقها ومسئوليتها تكوين هذا الوطن الذى يريده المجتمع ، والأسرة تساهم فى تكوين المواطن ، ولكن الأسرة قد اعترفت بعجزها عن القيام بوظيفة التكوين وحدها ، ونظرت إلى المدرسة باعتبارها البيئة المتخصصة فى عملية التربية .

وعلى هذا فالمدرسة تقوم بإعداد الطفل وتنمية قواه ومواهبه إعداداً فردياً وتتيح له الفرص للنمو الكامل ، وإعداداً اجتماعياً يوجه هذا النمو لينسجم مع نمو بقية أعضاء المجتمع ليحقق رغباته ، وليفهم نظمه ويتقبلها ويحترمها ويعمل على إصلاح الفاسد منها .

والمجتمع بما له من نظم وحضارة وقوانين — متغيرة . ولهذا يجب أن تساير المدرسة المجتمع فى هذا التغيير ، وألا تتخلف عنه ، وإلا فقد قصرت فى وظيفتها ، إذ ليس من المعقول أن تكون تجارب المتعلم ومعارفه وأخلاقه تمثل عصراً مضى وانقضى . فمثل هذا المتعلم حينما يخرج للحياة العملية يشعر بالنقص وعدم القدرة

على تكييف سلوكه وتفكيره ، للعالم الذى يعيش فيه ، فيشعر بأنه غريب ، وأن المجتمع فى غنى عنه .

ونحن نعرف أنواعاً من التعليم الطائفى أو المذهبى ، الذى يبالغ فيه أصحابه وينهجون طريقاً خاصاً ، فتكون النتيجة أن المتعلمين الذين تلقوه يعيشون منعزلين عن حياة المجتمع السائدة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يعتمد المجتمع على المدرسة فى أن تمده بالجديد من المعارف وبالصالح من المثل الخلقية ، وبالجميل من القيم الفنية . فالمدرسة فى هذا الحال لا تقف عند إمداد المجتمع بأفراد عاديين شبيهين كل الشبه بأفراد المجتمع خارجها ، بل عليها أن تحسن النوع الذى تخرجه وأن تكون عاملا مصلحاً ، وأن تحل هى مشكلة الهداية والقيادة العالمية والإصلاح الاجتماعى ، بما تزود به طلابها من المعارف والأخلاق والمبادئ . وفى هذه الحال يصدق القول بأن المجتمع ينظر إلى المدرسة لتوجهه وتقوده ، إذ لا شك أن رجال المدرسة هم نخبة أبناء المجتمع ، وهم المضطلعون بمهنة التربية . فهم أقدر على الإصلاح والتوجيه من أية هيئة أخرى . ولا يمكنهم ذلك إلا إذا جعلوا حياة المدرسة مبسطة خالية من تعقيد الحياة الاجتماعية الخارجية ، مستقاة من رغبات التلاميذ أنفسهم ، وصورة لنشاطهم ، لا شيئاً يملى عليهم إملاء ... والمدرسة مصدر الإصلاح الاجتماعى لأن الإصلاح الذى يأتى عن طريق القانون والتخويف بالعقاب ، أو تغيير النظم الإدارية الشكلية أو مظاهر الحضارة — لا بقاء له ، وإنما البقاء للإصلاح الذى ينمو فى عقول المتعلمين . فتتعشقه قلوبهم ويخرجون متحمسين لتطبيقه ونشره والدفاع عنه .

ويقول جون ديوى[1] : « إن التربية هى تنظيم عملية اشتراك الفرد مع بقية أعضاء المجتمع اشتراكاً عن وعى وقصد ، اشتراكاً فى حياة المجتمع الإيجابى ، ولا يمكن التأكد من أى إصلاح اجتماعى إلا إذا وجهنا نشاط الفرد وتفكيره على أساس أنه سيخرج ليشترك مع المجتمع فى حياته وإنتاجه » .

وربما يقال : إن المجتمع يستطيع أن يصلح ما به من عيوب عن طريق الثواب أو العقاب ، أو التشريع والبحث والمناظرة فى المجامع والصحف الخ . ولكن كل هذه

---

(١) فى كتاب Education Today.

الوسائل غير عملية إذا قيست بالإصلاح الذى يأتى عن طريق[١] التربية . ولنأخذ مثلا لذلك الديموقراطية فى نظامها وحياتها : إن المدرسة التى يسودها النظام الاستبدادى ، والتى يصدر فيها المتعلم أعماله عن خوف ورهبة أو رغبة فى الثواب لا يمكن أن تخرج أفراداً يحسنون استعمال الديموقراطية أو يدافعون عنها . وقد عرفنا كيف أن الأمم الديكتاتورية تعمد إلى المدارس فتربى أبناءها على هذه الروح ، حتى إذا خرجوا إلى الحياة العملية لازمتهم روح الخضوع والخوف . وعبادة الدكتاتور ، وقبول الأمر دون مناقشة أو تفكير . وتربية روح الجماعة والتداعى لما يصيب بقية أفرادها من خير أو شر ، أو تكوين عاطفة الحب نحوها والتقدير لها — كل هذا شىء يبدأ فى المدرسة . والمدرسة هى التى تنشط هذه الروح ، وتقوى الشعور بالمسئولية نحو هذه الجماعة بتكوين جمعيات مختلفة للرياضة والفنون والعلوم والاجتماعيات ، وتكوين فرق وأندية ذات أهداف شريفة نافعة . فيستيقظ فى الفرد شعوره بعضويته فى مجتمع ، ويعرف الكثير عن هذا المجتمع وصلته به ، وما له من حقوق وما عليه من واجبات وهذا إعداد ضرورى للحياة العامة . ولا يمكن أن تخلو أهداف التربية من كسب الرزق ولا يمكن أن ينتظم مجتمع إلا إذا قام كل فرد من أفراده بكسب رزقه كل بحسب إعداده . والمدرسة هى التى تعد الأفراد للقيام بكسب رزقهم عند ما يغادرونها فهى التى تقوم إعدادهم المهنى ، وعلى قدر صلاحية العضو للمهنة التى يقوم بها ترقى المهنة ويكثر إنتاجها ، ويرقى المجتمع ويرقى إنتاجه ، والمجتمع يعتمد على المدرسة فى أن تخرج له أعضاء صالحين لأنواع المهن التى يقومون بها ، وأن تمده بمن يحتاج إليهم من الصناع والعمال والفنانين والعلماء الخ ، حتى يتم التكامل الصناعى والعلمى والفنى . فهو إذن يتطلب من المدرسة إعداداً من نوع خاص ، وهى لا بد أن تعمل على تحقيق ما يطلب المجتمع . ولذلك نلاحظ تطور مناهج التعليم وطرقه يوماً بعد يوم حتى تساير حاجات المجتمع .

والتطور الاقتصادى والسياسى والاجتماعى فى العلم سريع . ولهذا يجب أن تتطور المدرسة بنفس السرعة ، وأن يشمل التطور المادة والطريقة معاً ، وإلا

---

(١) من المثل الواضحة التربية الصحية للشعب . فالمتعلمون يستطيعون استخدام قواعد الصحة وتنفيذها بينما الجاهلون لا يمكنهم هذا حتى ولو فرضت عليهم العقوبات وسنت القوانين .

فشلت المدرسة فى طريقها . وكثير من المواد الدراسية كانت مواد التربية المثالية فى يوم من الأيام فصارت اليوم تاريخية لايصح اتباعها .

وطرق التفكير فى الحياة وفلسفتها وأهدافها تحتاج لتمرين وتفهم ، والمدرسة هى المكان الذى يمكن أن يبدأ فيها هذا التفهم وهذا التمرين . فالأسلوب العلمى فى البحث والتفكير إذا تعوده الإنسان فى المدرسة لازمة عند ما يغادرها ، لأن يسأل الفرد نفسه لماذا أعيش ؟ وكيف أجعل حياتى مليئة بالآمال العظيمة وخدمات المجتمع ؟ لأن يسأل نفسه هذا وهو فى المدرسة وقت توجيه الأساتذة إياه خير من أن يخرج للحياة العملية تائهاً ، مشتت الأفكار والأهداف . وأمم العالم قد صارت الآن يعتمد بعضها على بعض ، ولا غنى لإحداها عن الأخرى . وليس من الحكمة أن يتعلم التلميذ أن مجتمعه مقصور على وطنه ، بل لا بد أن تعده مدرسته حتى يفكر فى العالم أجمع باعتباره وطنه الأكبر . والمجتمع يحتاج إلى قادة فى السياسة والصناعة والفنون والعلوم ، والمدرسة هى التى تكشف عن هؤلاء القادة وتشجعهم وتعدهم حتى يتبوءوا مكانتهم ، ومكانهم النافع فى المجتمع .

وكثيراً ما قضت المدرسة على مواهب فحرمت المجتمع من إنتاج أصحابها ، والمدرسة بكل هذا لا تعنى بالأفراد لذاتهم فقط ، ولكنها تعمل على إصلاح المجتمع وتقدمه ، وإلى جانب هذه الوظائف يجب أن تكون المدرسة مصدر إشعاع للمجتمع فتقوم بوظائف أخرى غير إعداد الصغار من أبناء الشعب — بإلقاء محاضرات ، وإقامة معارض وإنشاء مكتبات ، يأوى إليها الكبار من أبناء الشعب للاطلاع . وتتخذ أيضاً وسائل ومراكز اجتماعية للتسلية والرياضة والبحث والمناظرة. وقد تنتخب مراكز صحية للإشراف على صحة الشعب وتوجيهه ، وفحص مرضاه وعلاجهم . ونصيب المرأة فى هذه النواحى لا يقل عن نصيب الرجل . ففى هذه المدارس تقام دراسة للنساء فى التدبير المنزلى ، والأمومة والزوجية ، والثقافة العامة والتهذيب الدينى ، وتقام حفلات للتسلية والمتعة وبعبارة أخرى يجب أن تكون المدرسة مركز تثقيف للكبار فى المجتمع .

والمدرسة بهذا العمل تعمل على رفع مستوى المجتمع بتهذيب الكبار من أعضائه الذين لم ينالوا النصيب الكافى من الثقافة ، وبتعليمهم القراءة والكتابة وتنويرهم وقد حرموا من هذا صغاراً .

وإذا كانت هذه هى وظيفة المدرسة فالواجب على المجتمع أن يقدر مثل هذه الرسالة التى تقوم بها ، فيصلح من المدرسة باعتبارها بيئة التلميذ الأساسية إصلاحاً من حيث : البناء ، والأثاث ، والمنهج ، والطريقة ، والمدرس وغيره من القائمين بالعمل فيها . ويصلح المجتمع المدرسة بتقديم المال اللازم لها ، وبأن يكون سخيا فى كل ما تحتاجه التربية والمربون .

فإصلاح المجتمع يتوقف إذاً على إصلاح المدرس والمدرسة . وبهذه الطريقة يشعر المدرس كما يقول ديوى (بأنه رسول الله ، والواعظ المبشر بحكم الله فى مملكته) .

٢ ـ المدرسة ووظيفتها

المدرسة باعتبارها من عوامل التربية الأساسية

أشرنا إلى عوامل التربية غير المقصودة ، والعوامل المقصودة . وذكرنا أن المدرسة هى إحدى العوامل المقصودة الأساسية ، وأن الأسرة أحد هذه العوامل أيضاً . وسنتكلم عن الأسرة وأثرها فى تربية الطفل باعتبارها البيئة الأولى التى يعيش فيها ، والتى تحيطه بالعناية والرعاية والحفظ ، فى مرحلة هو عاجز عن الاعتماد فيها على نفسه .

والمدرسة هى الأداة التى تعمل مع الأسرة على تربية الطفل . نعم هى أداة صناعية غير طبيعية إذا قورنت بالأسرة ، ولكنها أداة ناجحة . فمن المقرر أن الأسرة لا تستطيع القيام وحدها بعملية التربية جميعها ؛ لأن وقت الأسرة لا يسمح بالإشراف المستمر طول مرحلة الطفولة والمراهقة والبلوغ ، أى إلى مرحلة الرجولة ، ولأن التربية عملية تخصص تحتاج إلى مربين لهم خبراتهم ومعرفتهم بطبيعة الطفل وما تحتاج إليه من وسط مناسب ، وأدوات ومعلومات ، وجو يستثير نشاطه ورغبته فى العمل والتعلم ، ولأن المربين يتجردون عادة من شفقة الوالدين المتطرفة أحياناً ، والتى قد تصل فى التساهل واللين إلى حالة تشجع الأطفال على العبث والسلوك الشاذ .

وفى المدرسة يجد الطفل من زملائه وقرنائه الصغار من يألفهم ويشاركهم ألعابهم وأغانيهم وأناشيدهم ، ويتعلم منهم ويشعر بينهم بعضويته فى مجتمعهم . فهو إذاً واجد بينهم المجتمع الذى يصلح له ، والذى يشجعه على التعبير عن ميوله وغرائزه . ولو حاول الوالدان استحضار مرب خاص للطفل لحرم هذا الطفل حياته

الاجتماعية المشتركة ، وما فيها من تنافس وتعاون ومشاركة وجدانية ، ومرح ولهو ولعب . وكم من الآباء يستطيعون أن يستحضروا لأبنائهم المربين الخاصين ؟

والمدرسة تفتح أبوابها للجميع : الخاصة والعامة ، فهى وسيلة للتربية الديموقراطية حيث يعيش الجميع فى بناء واحد ، ومنتمين لمعهد واحد ، ويتعلمون من أساتذة مشتركين . وفيها تتاح الفرصة للقدرات الطبيعية العقلية الخاصة والعامة — للظهور والنمو ، وبذلك تتكافأ الفرص من حيث إفساح المجال أمام الأذكياء من التلاميذ للتقدم ، فهى إذاً عامل لا يمكن الاستغناء عنه فى تربية صغار الجيل .

وظيفة المدرس : ولما كانت الأسرة لا تستطيع وحدها القيام بتربية الطفل وإعداده حتى يصل إلى مرحلة الرجولة فى هذا العصر الذى تعقدت فيه الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ولما كان الفرد مخلوقاً اجتماعياً ليس عضواً فى أسرته فحسب ، ولكنه عضو فى مجتمع أكبر من الأسرة هو مجتمع القرية أو المدينة ومجتمع الأمة ثم العالم أجمع — كان من حق المجتمع أن يتأكد من صلاحية هذا العضو لأن يعيش فيه ، ويكون مواطناً صالحاً يعيش مع غيره من المواطنين الآخرين فى سعادة كما يعيش معه غيره كذلك .

وعلى ذلك فالمدرسة تقوم بوظيفة تربية الطفل أولا بالنيابة عن أسرته التى هى المسئولة الأولى عنه ، وبالنيابة عن المجتمع الذى يعيش فيه ، والذى له حق الإشراف على تكوين أعضائه تكويناً يضمن صلاحيتهم للانتماء إليه ، وقد ذكر جون ديوى وظائف[1] المدرسة . ونحن هنا نلخصها ونضيف إليها :

١ — نقل تراث الأجيال الماضية لصغار الأجيال الحاضرة : فما يخلفه الماضى من الأعمال جيلا بعد جيل يتجمع فى سجلات مكتوبة ، حتى لو عدلنا عن استعماله فى حياتنا بصورة مؤقتة ، وعلى ذلك يتحتم على كل جماعة تريد أن تحتفظ بصلتها بالماضى يتحتم عليها أن تتخذ المدارس أداة تضمن بها نقل جميع مواردها ومقوماتها إلى النشء الجديد نقلا صحيحاً . وهذا النقل من خصائص الإنسان ، فليس بين أنواع الحيوانات المختلفة ، نوع له هذا النظام المدرسى الذى ينقل إليه تراث الأجيال السابقة . وليس من المتيسر الوصول إلى كل ما

---

(١) فى كتاب : Democaracy & Educatiom

يحتاجه من معارف عن طريق الخبرة المباشرة . فنحن هنا فى مصر نعيش متأثرين بمعارف قرون سبقت فى الرى والمعمار والطب والثقافة والدين والقانون ، كما نعيش متأثرين بثقافات وحضارات أمم تبعد عنا آلاف الأميال . وليس من الممكن الاتصال الشخصى بها حتى تنتقل إلينا هذه المؤثرات ، وإذاً فالسبيل إلى هذا التأثر هو السجل المكتوب الذى تقوم المدرسة بتفسيره عند ما تعلم القراءة .

٢ — الاحتفاظ بهذا التراث والعمل على تسجيل ما يجد : فلو اكتفينا بمعارف التراث القديم عن طريق القراءة ولم نعلم الكتابة ، ولم نسجل بها ما يوجد لضاع التراث الجديد ، وحرمت الأجيال القادمة الانتفاع به ، فالمدرسة إذاً تسجل بطريق تعليمنا الكتابة التراث الجديد .

٣ — التبسيط : فالحضارة معقدة التركيب ، ومن الصعب اتخاذها والاستفادة منها كما هى ، بل لابد من تبسيطها وتفكيكها إلى أجزاء ، واصطناع المناسب منها بالتدريج ، والطفل لا يقوى على مواجهة الحياة وتكييف نفسه لما فيها من نظم وقوانين وعادات هى نتيجة قرون عديدة فى النمو والتركيب . وإذاً فالمدرسة تبسط له كل هذه الأشياء وتعوده عليها أو تلقنه إياها ، حتى يتخذها بالتدريج ؛ فالموسيقى مثلا قد صارت الآن فناً معقداً ، ولا يستطيع النشء تعلمها وإجادتها عن طريق التقليد فقط كما كانت الحال فى العصور الأولى ، بل لا بد من دراسته بالتدريج ومعرفة بسائطه ثم الترقى إلى المركب منه ، والمعمار لم يعد فناً بسيطاً ، ولكنه فن مبنى على نظريات علمية . ولا بد فى تعلمه من تبسيطه . وقوانين المجتمع مشتبكة معقدة ، ولا بد فى تفهمها من وضعها فى صورة مبسطة عن طريق المدرسة . ولذلك كان من وظائف المدرسة تهيئة بيئة مبسطة تختار للناشئة ما يمكن أن تستجيب لها من النواحى الهامة للحياة ، ثم تعد نظاماً متدرجاً يستخدم فيه الناشئ ما يقتبسه أول الأمر ، أداة لتفهم ما هو أكثر اشتباكاً .

٤ — التطهير : فالمدرسة تخلق للتلاميذ بيئة مصفاة خالية من عيوب المجتمع الأخلاقية ، ومن مظاهره الشائنة حتى لا تؤثر فى أخلاقهم . ومن المعروف أن كل مجتمع تثقله خرافات الماضى وأباطيله وتقاليده العقيمة المتحجرة . وواجب المدرسة أن تتخلص من كل هذا ، وأن تنشئ الطفل على معرفة الحقائق والفضائل والعمل بها . فإذا ماخرج للحياة العملية استطاع أن يقاوم هذه الأباطيل

والخرافات والتقاليد الفاسدة وأن يسمو بمجتمعه . فالتلميذ الذى يتعلم فى المدرسة أن الماء العكر يضر بالصحة ، والذى يشرب فى مدرسته الماء الصافى النقى ، يعمل حين يخرج إلى المجتمع على جعل من يشرب من الماء العكر يتخلص منه ، والتلميذ الذى يجد فى المدرسة جواً مشرباً بالتعاون والتنافس الشريف يعمل حينما يخرج إلى المجتمع على تطهيره من التنافس البغيض . والتلميذ الذى يتعود فى المدرسة التضحية بالمصالح الفردية فى سبيل المصالح العامة يعمل حين يخرج إلى المجتمع على مقاومة أصحاب المصالح الفردية على حساب المصلحة العامة . وهكذا تعمل المدرسة على التخلص من عيوب المجتمع وعلى تقوية محاسنه . وكلما استنارت الجماعة أدركت أنها ليست مسئولة فقط عن حفظ تراثها بأكمله ، ونقله إلى الجيل الجديد ، بل تتعدى تبعتها ذلك إلى نقل ما يؤدى إلى تحسين حياة الجماعة المقبلة عن طريق المدرسة .

٥ — ومن وظيفة البيئة المدرسية إقرار التوازن بين مختلف عناصر البيئة الاجتماعية وإتاحة الفرصة لكل فرد حتى يتحرر من قيود الجماعة التى نشأ فيها ويتصل ببيئة أوسع منها اتصالا ثقافياً وخلقياً . فكل تلميذ يجىء من أسرة لها أخلاقها ومستواها العلمى وطابع حياتها وتقاليدها ، وهو يجىء أيضاً من مجتمع قد تأثر به قبل دخوله المدرسة ، كأصدقاء الشارع والأقارب والزائرين لأسرته . وعلى هذا فكل تلميذ يجىء وله صفاته الخاصة التى اكتسبها فى مجتمعه . ووظيفة المدرسة هى إيجاد التقارب بين هذه الصفات المختلفة ، وخلق صفات جديدة مشتركة توحد بين أهداف هذه الصفات المختلفة ، وخلق صفات جديدة مشتركة توحد بين أهداف التلاميذ وطرق تفكيرهم ، وتقارب بين عقائدهم الدينية ومواهبهم السياسية ، أو على الأقل تنشئهم على أسلوب سليم من التفكير العلمى . ويدرك هذا جيداً من له صلة بمدارس الهند والولايات المتحدة ، أو أى بلاد أخرى حيث تعيش جماعات مختلفة الأديان والتقاليد والنظم والمطامع ، وقديماً كان اختلاف الجماعات أمراً جغرافياً فى الغالب ، فكانت هناك جماعات كثيرة ، ولكن كل واحدة منها متجانسة بعض التجانس فى حدود أراضيها . أما الآن فبحكم تقدم التجارة ووسائل النقل والمواصلات والهجرة أصبحنا نرى فى الأمة الواحدة جماعات مختلفة العادات والتقاليد . من أجل هذا كان من عوامل تفكك الأمة قيام مدارس طائفية أو مذهبية تعلم نوعاً خاصاً من الأفكار التى تسود الأمة ، وكان من الواجب أن

تكون المدرسة الأولى واحدة للجميع ، حتى يمكن مقاومة تلك القوى المشتتة الناشئة عن تجمع هيئات مختلفة فى نطاق كيان سياسى واحد . فمازج النشء فى المدرسة على اختلاف عناصرهم وأديانهم وعقائدهم — يخلق لهم بيئة جديدة أوسع من البيئة الأولى ، لأن المادة الدراسية الواحدة تعودهم وحدة النظر إلى أفق أوسع مما تظفر به أى جماعة منعزلة .

ولعل من الأسباب التى دعت هتلر الألمانى إلى التعنت مع اليهود أنهم كانوا يكونون وحدة منطوية على نفسها داخل ألمانيا بإنشائهم مدارسهم وأنديتهم الخاصة ، وكذلك إصدار مجلاتهم بلغتهم العبرية ، ولأنهم كانوا يشعرون بأنهم وحدة متماسكة منفصلة إلى حد كبير عن الوحدة الألمانية الكبرى .

هذه وظائف تتميز بها المدرسة عن الأسرة ، وإلى جانب هذه الوظائف تقوم المدرسة ببعض وظائف الأسرة فهى تشترك مع الأسرة فى العناية بجسم النشء وصحته ، بما تقدمه له من البيئة الصحية والألعاب الرياضية والإرشادات والغذاء والفحص والعلاج ، بطريق الوحدات أو طبيب المدرسة . وهى تساعد على تربيته العقلية بما تهيئه من دراسات وما تعرضه من مشكلات تحتاج فى حلها إلى الدرس والفحص والتحصيل ، وبما تقدمه من وسائل المعرفة كالكتاب والمعمل والورشة والحديقة والغابة والمسرح وغير ذلك من الوسائل المباشرة وغير المباشرة . وهى تساعد على تكوينه الخلقى والاجتماعى ، فلها باعتبارها مجتمعاً مصغراً لوائح وقوانين لحفظ النظام وللتأديب المدرسى ، وهذه القوانين تطبق عليه ويحترمها ، وقد يشترك فى وضعها . وفى هذا تمرين له على أن يعيش عضواً صالحاً فى مجتمع يحترم نظمه وتقاليده . وفى المدرسة جمعيات مختلفة علمية وأدبية وفنية يشترك فيها التلاميذ ، ويتمرنون على القيام بنصيبهم من المسئولية . وفى هذا إعداد للمواطنين الصالحين .

وفى هذه الجمعيات يتعلم التلميذ المحافظة على المواعيد واحترام رأى الغير ، والأخذ والإعطاء ، والتفكير المجرد من الهوى ، وإيثار مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، وغير هذه من الصفات الاجتماعية الطيبة ، ويجد التلميذ فى المدرسة مثلا أخلاقية عالية فى أساتذته وسلوكهم فيحاكيهم . وإذا كانت هذه وظائف المدرسة فيجب ما يأتى :

١ — أن تكون صورة مصغرة للحياة الاجتماعية الراقية يدرب فيها التلاميذ على محبة العمل وإنجازه وعلى التعاون الاجتماعى والاقتصادى لمصلحة الجماعة والوطن .

٢ ــ أن يجد التلميذ فيها الفرص المواتية لتنمية مواهبه وميوله وتوجيهه إلى الدراسات أو المهن التى تناسبه ، وأن تعنى بالفردية بين التلاميذ .

٣ ــ أن تنمى عند المتعلم صفات المواطن الصالح ، والشعور بالمسئولية ، والرغبة فى التضحية ، والقيام بالواجب لأنه واجب ، وتقدير الفضيلة للفضيلة ذاتها .

٤ ــ أن تكون مجتمعاً مشبعاً بالتعاطف والتفاهم بين الرئيس والمرءوس ، وأن يسودها جو من الديموقراطية .

٥ ــ أن يجد فيها المتعلم المثل الأخلاقية العليا ، والمثل الجمالية فيما يقع عليه نظره وما يسمعه .

٦ ــ أن تكون قوية الصلة بالمنزل من جهة وبالمجتمع من جهة أخرى ، حتى تعمل على إصلاح ما فيهما من عيوب وأخطاء .

ولما كان أقرب المجتمعات المنظمة وألصقها بالمدرسة هى القرية أو المدينة ناسب أن نذكر شيئاً عن المدرسة وعلاقتها بالحياة فى القرية والمدينة .

المدرسة وعلاقتها بالحياة فى القرية والمدينة

المدرسة هى المركز التثقيفى التربوى لصغار أبناء القرية أو المدينة . ورجال المدرسة هم الطبقة المثقفة الممتازة بين سكان القرية . ولذلك يجب أن يكونوا فى طليعة المصلحين الاجتماعيين ، وأن يشعروا بالتبعة العظيمة الملقاة على عاتقهم نحو مواطنيهم الكبار والصغار .

وإذا كانت وظيفة المدرسة الأولى هى تربية الصغار ، كما أشرنا إلى ذلك بتفصيل فى مكان سابق ، فإن هناك إلى جانب هذه الوظيفة وظيفة أخرى هى تثقيف الكبار وتوجيههم فى حياتهم ، وتنظيم أوقات فراغهم . وقد شرعت المدرسة المصرية تؤدى هذه الوظيفة .

فالمدرسة تشغل بالصغار أثناء النهار عادة ، ولكن يمكن الاستفادة منها بعد الدراسات النهارية بتنظيم دراسات مسائية للكبار من الرجال والنساء تتناسب مع حاجاتهم المعاشية أو الثقافية . فمن الممكن مثلا إعداد دراسات للإرشاد فى المهن المختلفة : زراعية كانت أو صناعية أو تجارية . وكثيراً ما تحل بالقرية أزمات معاشية تحتاج فيها إلى التوجيه كإصابة القطن بالدودة مثلا ، أو ظهور مرض فى القمح ، أو حاجة المزارعين إلى سماد ، أو كيفية رى نوع جديد من الحاصلات

أو طريقة تخزين أحد الحاصلات لرخص ثمنه إبان الموسم . ومثل هذه الأزمات تحتاج إلى توجيه وقيادة . والمدرسة تعتبر مركز هذا التوجيه بتنظيم محاضرات ، ودروس استعراضية لتعليم السكان .

هذا إلى أن نسبة الأميين فى مصر مرتفعة ، والمدرسة هى المكان الصالح لتعليم الأميين ، ومدرسوها هم أولى الناس بالقيام بهذه المهمة .

والحياة الصحية فى مصر تحتاج إلى إشراف وتوجيه ، وكذلك الحياة الاجتماعية . وبناية المدرسة يمكن أن تتخذ مركزاً اجتماعياً صحياً لمساعدة الناس وإرشادهم .

ولكى يستغل وقت الفراغ استغلالا مناسباً يمكن إنشاء مكتبة للمطالعة أو الإعارة ، ويمكن الأهلون من الاستفادة من هذه المكتبة .

وفى البلاد الأوربية تعقد اجتماعات دورية للأمهات والآباء فى المدارس ليتذاكروا فى مشاكلهم المعاشية ، والمشاكل التى تتصل بحياة أولادهم ، ويستعينوا فى ذلك بآراء الخبراء من المربين وعلماء النفس .

والأصل أن طرق التعليم فى المدرسة ونظمها وحياتها يجب أن تكون جزءاً من الحياة الواقعية خارجها . كما يجب أن يشعر أولياء الأمور أن المدرسة دائماً مفتوحة أمامهم . وبذلك تساهم المدرسة فى إصلاح الحياة بالقرية والمدينة .

٣ـ الأسرة وأثرها فى التربية

يولد الطفل فى أسرة ، تتكون عادة ، من أب ، وأم . وهما اللذان يقومان بتربية الطفل ، وكفالته ، حتى يصل إلى مرحلة الرجولة ، وحينئذ يستطيع أن ينفصل عنهما . وقد تكون الأسرة مكونة من أكثر من الأب والأم ، كالإخوة والأخوات .

والأسرة هى البيئة الطبيعية ، التى تتعهد الطفل بالتربية ، لأن غريزة الأبوة والأمومة ، هى التى تدفع بكل من الأب ، والأم ، إلى القيام برعاية الطفل وصيانته ، ولا سيما فى السنوات الأولى من طفولته .

والطفل البشرى — كما قلنا — يعتمد فى مرحلة طويلة ، أطول من مرحلة أى

طفل حيوانى — على رعاية الوالدين ، وهو يمضى عادة سنوات الطفولة المبكرة بين أحضان الأسرة .

وقد أشرنا إلى أهمية السنوات الأولى فى تكوين الطفل الجثمانى ، والعقلى ، والوجدانى ، والخلقى ، وتكوين العادات والعواطف ، وإلى أن علماء النفس يرون أن مرحلة الطفولة المبكرة ، هى أهم مراحل الحياة فى تاريخ الناشئ ؛ إذ هى الأساس الذى يعتمد عليه نمو الطفل فى المراحل التالية . وهى مرحلة الليونة ، والمرونة ، وقابلية الطفل للتأثر بكل ما يحيط به :

فنمو الطفل الجثمانى يتأثر بظروف الأسرة ، والمنزل ، من حيث : الفقر ، والغنى ، وتوفر أسباب الصحة فى المنزل : كالهواء الطلق ، والشمس ، والضوء ، والنظافة ، والراحة الكافية ، والخلو من المزعجات ، والغذاء الصحى الجيد ، والقدرة على تجنب الأمراض قبل وقوعها ، وعلاجها ، أو التخلص منها بعد وقوعها .

وقد دلت الإحصاءات على أن نسبة الأطفال الذين يمرضون فى مرحلة الطفولة المبكرة ، أكبر فى الأسرات الجاهلة والفقيرة ، منها فى الأسرات الغنية ، والمتعلمة . وكذلك نسبة وفيات الأطفال فى الأسرات الجاهلة ، والفقيرة ، أكبر منها فى الأسرات الغنية والمتعلمة . وكثير من العاهات والعلل الجسمية نتيجة إهمال الوالدين للأطفال فى سنواتهم الأولى بصفة خاصة ؛ كالعمى والصمم ، والأمراض الصدرية .

والطفل يتأثر بكل ما يحيط به من منبهات Stimuli منزلية ، ويكيف سلوكه تبعاً لها ، فهو يتعلم فى الأسرة اللغة القومية ، واللهجة التى يتكلمها الوالدان ؛ ولذلك تسمى اللغة القومية فى الإنجليزية Mother Tongue وفى الفرنسية Le Langue Matérnelle وفى الألمانية Mutter Sprache وبمجرد تعلمه اللغة تنتقل إليه عن طريق الكلام أفكار الكبار من أفراد الأسرة ، وآراؤهم ، فيتأثر بها ، وتنمو معارفه ، وفقاً لمستوى الأسرة الثقافى .

والطفل يتعلم من أسرته كل ما يحتاج إلى معرفته ، فهو دائم السؤال ، دائم البحث والتنقيب ، ولا سيما فى السنوات الأولى ، وهو يلجأ إلى والديه — أو من هم فى مقامهم من الكبار — يسألهم ويسترشد بهم .

ولذلك نستطيع أن نميز بين المستوى الثقافى لأسرات الأطفال ؛ من لغتهم ، وقاموسهم اللغوى ، وأسلوبهم ، ومعارفهم العامة ، وسلوكهم .

وقد لاحظت سوزان أيزكس ، أن عامل الأسرة ، هو أحد العوامل الثلاثة التى تسبب الفروق الفردية بين الأطفال ، وهى تقول فى هذا الصدد (١) :

« أما الضرب الثالث من المؤثرات التى تؤدى إلى التباين بين الأطفال ، فهو اختلاف حالات بيوتهم ، وأوساطهم الاجتماعية ؛ فهذا طفل من بيت فيه كتب ، وحديث ، ونزهات ، وإجازات ، وفيه يعنى الوالدان عناية كبيرة بمن يصادق الطفل ، وبتقدمه فى المدرسة . وذاك من وسط عائلى يكاد يكون أمياً . والثالث يأتى من مسكن مزدحم تهمل فيه حاجات الطفولة . ومن هؤلاء تجد جميع ضروب الخير والشر ، وشتى العوامل المساعدة أو المعطلة » .

وإذا نظرنا إلى عادات الأكل ، والشرب ، والمشى ، والنوم ، واللبس ، ومعاملة الناس ، وجدنا أن الأسرة هى العامل الفعال الأول فى تكوين هذه العادات ؛ ذلك لأن الطفل يحاكى الكبار من أفراد الأسرة ، وينظر إليهم باعتبارهم نماذج طيبة أمامه . والأسرة تقوم عادة بتهذيب سلوك الطفل الغريزى فى طفولته الأولى ، وتشرف على توجيهها ، وتقويمها ، فهى بهذا مسئولة عما يتميز به الناشئ من خلق . ولو تأملنا كثيراً من أعمالنا اليومية ، وحاولنا أن نعرف مصادرها ؛ لوجدنا أننا مدينون للأسرة بكثير من ضروب السلوك ؛ كطريقة الأكل ، وغسل اليدين قبله وبعده ، وطرق الباب قبل دخول حجرة الغير ، وكيفية مخاطبة الصغير للكبير .

والطفل يتعلم أول درس فى الحب ، والكراهية ، فى المنزل ، مما يلمسه من حب والديه له ، وكراهيتهم لمن يؤذونه ، أو يضرونه ، ومن صلة أفراد الأسرة بعضهم ببعض إن كانت صلة احترام ، وعطف ، أو صلة نفور واستهتار وشغب . ولهذه الصلة أثر مباشر فيما يشعر به الطفل من اطمئنان وحرية ، فإذا كان جو الأسرة سعيداً ، مشبعاً بالتعاطف والود ، نمت وجدانات الطفل نمواً متزناً ، وشعر بالحماية ، والسلامة ، وحرية التصرف ، لأنه يشعر بأن المحيطين

---

(١) The Children We Teach.

به يفهمون سلوكه ، ويعطفون عليه . وبذلك يخلو نمو الطفل من كثير من العقد النفسية ، ومن الكبت ، وينشأ سليم العقل .

وقد وجد من دراسة بعض الحالات العصبية . أن سببها سوء معاملة الوالدين ، أو أحدهما للطفل فى سنواته الأولى ، مما كان له أثر لا شعورى فى سلوكه ؛ فالأم التى تخوف ابنها تخلق منه رجلا هياباً ، رعديداً ، جباناً ، وتقتل فيه حب المخاطرة ، والشجاعة .

وعلاقة الإخوة بعضهم ببعض فى الأسرة ، وعلاقة الوالدين بالإخوة ذات أثر فى تكوين خلق الطفل؛ فإذا كان الأب ، أو الأم ، يتحيز لبعض الإخوة ، ويميزه على غيره — فقد يكسبه هذا السلوك شعوراً بالغيرة والمنافسة ؛ فينشأ أنانياً ، ساخطاً ، يشعر بمرارة الظلم ، والحرمان ، كما هى الحال فى الأسرة التى يتزوج فيها الأب أكثر من زوجة .

ونظام الحياة المنزلية ، وما يحيط بالطفل من أثاث ، وأدوات له أثر كبير فى تكوين ذوق الجمال عنده . فإذا كان محاطاً بالصور الجميلة ، وبالحياة المنظمة ، وبالحدائق المنسقة ، وكانت ملابس أفراد الأسرة ، وملابسه ، مختارة اختياراً موفقاً ، وكان يسمع المختار من الموسيقى والأغانى — نشأ ذوقه يألف الجميل ، وينزع للجمال .

والطفل يعتنق دين أسرته وتقاليدها — فيؤثر فى سلوكه ، وتفكيره ، ونظرته للحياة . وقد قال صلى الله عليه وسلم : (كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يمجسانه ، أو يهودانه ، أو ينصرانه) ، وإنما يبدأ ينظر إلى دينه وتقاليده نظرة موضوعية بالاتصال بأفكار الآخرين ، وباتساع معارفه . وهو مرتبط بأسرته ، فى سرائها وضرائها ، تربطه بها عاطفة الحب ، فبينه وبينها مشاركة وجدانية ، وهذا ما يجعله سريع التأثر بما توحى به .

والوالد — عادة — هو الذى يفكر فى مستقبل ابنه ، ونوع الدراسة التى تناسبه ، وهو الذى يحاول توجيهه أثناء التلمذة . وبقدر ثقافة هذا الوالد ومعرفته بطبيعة الطفل يكون توجيهه صحيحاً . وقد يرغب الوالد فى نوع من الدراسة لا يلائم استعداد ابنه ، فيوجهه توجيهاً خاطئاً ، وبذلك يقاسى الابن نتائج التوجيه طول حياته .

ويرى علماء الاجتماع والتربية أن الأسرة هى أصلح بيئة لتربية الطفل وتكوينه ، ولا سيما فى سنواته الأولى ، فالصلة بين الوالدين والطفل أقوى ما تكون بينه وبين أية جماعة أخرى . ولذلك كانت نشأته مع والديه خير وسيلة لتهذيب انفعالاته ، ووجداناته ، وتكوين خلقه . غير أن جهل الأسرة قد يكون سيئ النتائج ؛ فيندفع أحد الوالدين وراء حبه لطفله ، وعاطفته نحوه ، ولا يستخدم الحزم والحكمة فى الوقت المناسب .

وقد يكون الوالدان قاسيين على الطفل ، مهملين له ، فينسيانه أمام مؤثرات أخرى خارجية ، وبذلك يصبح الناشئ ضحية قسوة الوالدين . وربما كانت هذه القسوة حافزاً على الجد والاجتهاد ، للتخلص من مضايقات الأسرة فيصادفه التوفيق فى عمله .

وقد شعرت الأمم الراقية بالحاجة إلى تربية الآباء ، وتثقيفهم بالثقافة الوالدية فتكونت فيها جمعيات يشترك أعضاؤها فى بحث مشكلات النشء ، وكيف تعالج ، وأجريت لهم دراسات فى علم النفس ، والتربية ؛ لتنويرهم فى مراحل نمو الأطفال ، وكيف يعاملونهم فى كل مرحلة . غير أن بلادنا لا تعانى جهل الآباء والأمهات بمبادئ تربية أولادهم فقط ، ولكنها تعانى الجهل العام ، والفقر ، والمرض الذى يفتك بالكبار قبل الصغار .

فلا عجب أن ينشأ الطفل فى أغلب الأسرات متروكاً للمقادير ، وأخطاء الآباء والأمهات . وكثير من الأسر ، لا يعانى الفقر ، ونقص وسائل الصحة ، وجهل الوالدين فقط ، بل قد لا يكون مع الطفل أطفال آخرون يلعبون معه ، ويرافقونه وربما كانت هذه الحال فى الأسرات الغنية أوضح ، فلا تجد ميوله ورغباته الجو المناسب لها ؛ للنموّ ، والتكوين ، ويشعر بالحرمان ، وعدم الانسجام مع رغبات الكبار ، وعواطفهم ، وبذلك تنشأ عند الطفل حالة نفسية غير صحيحة .

ويقول برتراند رسل : إن عقل الطفل ، وبدنه يتطلبان قدراً كبيراً من اللعب ، واللعب لا يتيسر على وجه مرض بعد السنوات الأولى ، إلا من الأولاد والبنات الآخرين . وبدون اللعب يعتبر الطفل مرهقاً عصبياً ، لا يجد للحياة فرصة ، وتتوالد فى نفسه المخاوف والهموم ؛ ومعظم الأطفال — حين يميزون —

يؤثرون اللعب مع الأطفال الأكبر منهم ؛ لأنهم يحسون عندئذ أنهم عظام ، والأسرة — وحدها — هى التى تهيئ فرصة تعلم الأطفال الصغار من الكبار عن طريق اللعب معهم . ومعاشرة الأتراب من الأطفال أفضل وسيلة لتعلم العادات الاجتماعية ، والتنافس والتعاون ؛ فإذا كان هذا متوفراً فى الأسرة الواحدة تحقق الغرض . وإلا . . . نشأت الحاجة إلى المدرسة .

هذا ومعظم الآباء والأمهات لا يستطيعون تربية أطفالهم ، إما لأنهم مشغولون أثناء النهار ، أو لأنهم مرضى . وفى هذه الحال نجد الحاجة ملحة لإرسال الأطفال إلى مدارس الحضانة Nursery school حيث يجدون العناية من مربيات متخصصات ، ويجدون بين أترابهم من الأطفال جواً اجتماعياً مناسباً ، ويجدون — أيضاً — العناية ، والأثاث ، والأدوات ، واللعب التى تتناسب معهم . ولكن ، أيمكن أن تقوم هذه المدرسة مقام الأسرة فى تربية الطفل ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال يجب أن نعرف شيئاً عن مدارس الحضانة .

ليست مدرسة الحضانة مدرسة بالمعنى التقليدى ، يتعلم فيها الطفل القراءة والكتابة ، والحساب إلخ وإنما هى مكان يحتوى على حديقة ، وفناء ، وحجرات ، وأبهاء ، وسقائف يلعب فيها الأطفال ، ويمرحون ، وهى مكان يجد فيه الأطفال الغذاء الجيد ، والإشراف الصحى ، ومجال اللعب والراحة فى الهواء الطلق والشمس . وهى مكان يستطيع فيه الطفل أن يتعلم عن طريق الملاحظة والبحث والكشف ؛ ملاحظة النبات ، وصغار الحيوان ، وملاحظة أترابه من صغار الأطفال الذين يلعب معهم ، ويغنى معهم ، ويرقص معهم ، ويتشاجر معهم ، ويصافحهم . وهى مكان يجد فيه الطفل لذة وسروراً ، فيما يسمعه ، ويشترك فيه من الأغانى ، والأناشيد ، والموسيقى ، والقصص الطريفة ، والمسرحيات القصيرة البسيطة . وهى مكان ينمو فيه الطفل على سجيته حراً ، بغير ضغط أو شدة ، تحت رقابة مشرفات خبيرات أعددن إعداداً خاصاً ، ودرسن الطفولة ، وطبيعتها السيكولوجية والجسمية ، فالطفل يستطيع فى مدرسة الحضانة أن يكون عادات طيبة ، كالنظافة ، والنظام ، والطاعة ، والتعاون ، والاستقلال ، وآداب الحديث ، من غير أن يجبر على ذلك .

وإذا كانت هذه هى مدرسة الحضانة ، فهل يمكن أن نستغنى بها عن

الأسرة ؟ الواقع أن الحياة زادت تعقيداً ، وأن مطالب الأسرة والمعيشة . قد تستغرق من الأم كل وقتها داخل المنزل ، أو خارجه ، وأن الأم قد لا تجد من الوقت والعناية مايكفل للطفل الجو المرح السعيد . وربما لا تستطيع — وهذا هو الغالب — أن توجه إلى الطفل العناية المبنية على أصول تربوية صحيحة . لذلك نشأت الحاجة فى الأمم الصناعية ، والتجارية ، وفى المدن ، حيث تعمل الأم خارج المنزل — إلى إرسال الأطفال إلى هذه المدارس . وهى تقبل الأطفال من سن الثانية إلى سن الخامسة . وتختلف المدة التى يقضيها الأطفال فى المدرسة ، فقد تكون من الثامنة صباحاً إلى الثانية بعد الظهر . وفى بعض المدارس الأوربية تكون من الثامنة صباحاً إلى الثامنة مساء ، وينام الأطفال فى المدرسة بعد الظهر .

فإذا كانت هذه هى حال مدرسة الحضانة فهى خير معين للوالدين على تربية الأطفال . ويجب أن ينظر إليها ، لا باعتبارها بديلا عن الأسرة ، ولكن باعتبارها مساعداً للأسرة على تربية الأطفال .

وما زالت هذه المدارس فى أوربا وأمريكا بالمصروفات ، ويرسل إليها أولاد الموسرين . وينادى بعض المربين الآن بأن تجعل هذه المدارس إلزامية لأبناء من لا يستطيعون القيام بتربية الأطفال تربية صحيحة .

وإذا نظرنا إلى حياتنا هنا — فى مصر — وإلى حالة الأسرة المصرية حق لنا القول بأن مصر أحوج الأمم إلى انتشار مدارس الحضانة فيها . ولكن أنى هذا لشعب يكثر فيه عدد الأميين .

الأسرة والمدرسة والتعاون بينهما

تكلمنا عن وظيفة الأسرة فى التربية ، وعن وظيفة المدرسة أيضاً ، وذكرنا أن كلتيهما من العوامل المقصودة . وعلى هذا لابد أن يكون التعاون بينهما وثيقاً حتى تصلا بتربية الطفل إلى الهدف المراد ، وحتى لا يحدث بينهما تناقض يترتب عليه تفكك فى شخصية الطفل واضطراب ، وفقدان الثقة فى المدرسة أو الأسرة أو كلتيهما .

وهذا التوازن بين المدرسة والأسرة ضرورى حتى يتكامل نمو الطفل ويتجه

اتجاهاً واحداً مشتركاً . فإذا كانت الأسرة لا تحترم نظام المدرسة مثلا فلا تساعد التلميذ على الحضور إليها فى المواعيد المقررة تعطلت وظيفة المدرسة ، وعوقب التلميذ وضاعت عليه فرص التربية فيها . وإذا كانت المدرسة تكلف التلميذ من الواجبات ما لا يستطيع القيام به ، بسبب حالة الأسرة المادية أو الاجتماعية ارتبك التلميذ وقصر فى واجبه ، ونمت فيه كراهية الأسرة أو المدرسة . وربما لجأ إلى سلوك شاذ ليتخلص من هذه الواجبات .

وشبيه بهذا ينطبق على تحصيل المعارف . فإذا كانت المعارف التى يحصلها التلميذ من المدرسة تتناقض مع ما يحصله فى المنزل ، أو كانت المثل العليا للفضيلة والجمال فى المنزل تختلف عنها فى المدرسة ، تغلبت الناحية القوية منهما ، وربما كانت الناحية الفاسدة . وطريقة معاملة التلميذ فى المنزل يجب ألا تختلف كثيراً عن طريقة معاملته فى المدرسة ، فإذا كان مدللا فى المنزل ووجد فى المدرسة الحزم نفر منها ، وقد يهرب أو يثور لذلك . وعلى هذا يجب أن يكون جو المدرسة استمراراً لجو المنزل الصالح ، وذلك عن طريق اتصال الآباء بالمدرسة واتصال المعلمين بالمنزل ، حتى يعرف كل منهما ما يجرى فى الآخر ، وحتى يتعاونا — وهما عاملان أساسيان — على حل المشكلات التى تتصل بالطفل ، وحتى لا يستغل التلميذ أحدهما لحساب الآخر ؛ كأن يهمل فى أداء واجبه المدرسى احتجاجاً بأن فى المنزل مريضاً أو أن قريباً له توفى ، وكأن يطلب من المنزل مصاريف ونفقات لأعمال مدرسية لا حقيقة لها . وقد تنبهت الأمم الأوربية والولايات المتحدة إلى ضرورة هذا التعاون فأنشأت جمعيات تسمى جمعيات الآباء والمدرسين تعقد مؤتمرات واجتماعات لدرس مشاكل الأطفال والتفاهم على حلها . ومن هذه الجمعيات :

The home and school Council of Great Britain

ووظيفتها أن تعمل على التوفيق بين المدرسة والمنزل ، وتدرس الوسائل المتعلقة بتربية الأطفال تربية كاملة من جميع نواحيها . ويجب أن تعلم أن التفاهم بين المنزل والمدرسة عامل جوهرى لسعادة الطفل ورفاهيته .

ومن مظاهر هذا التعاون أن تخصص المدرسة يوماً فى السنة يسمى « يوم الآباء » ، يدعى فيه الآباء والأمهات إليها ليزوروا حجراتها أثناء الدراسة ،

ومكتبتها ، ومعاملها وحديقتها ، ومتحفها ، ومسرحها ، ولتعرض عليهم نماذج من إنتاج التلاميذ فى الرسم والتصوير والأشغال اليدوية وغيرها ، وليشاهدوا ما يقوم به التلاميذ من ألعاب رياضية ، أو مشروعات ، أو تمثيل ، أو حفلة موسيقية . ويرى بعض المربين أن تكون أبواب المدرسة مفتوحة دائماً للآباء ، يستطيعون زيارتها كلما أرادوا ، ويستقبلهم ناظر المدرسة أو من يقوم مقامه ، للتحدث فى شئون الأبناء ، أو دراساتهم ، أو دراسة حياتهم خارج المدرسة ، أو المهن التى يصح أن يدرسوا لها ، والتى يصلحون لها بحكم ميولهم واستعدادهم ، ولتفهم المدرسة والمنزل أساس توجيههم . ومن الأيام التى تتاح فيها للآباء زيارة المدرسة يوم أول السنة الدراسية ، ويوم الطبيب ، فيستقبل الناظر الآباء ليبحث حالة كل تلميذ منفردة ، وما يحتاج إليه ، ويستمع لرأى الأب أو الأم فيه . ويسترشد الطبيب برأى ولى الأمر فى حالة التلميذ الصحية ، كما يسمع ولى الأمر رأى الطبيب فيه ، وما يحتاجه من علاج أو وقاية . وتقيم بعض المدارس أسبوعاً كاملا يسمى (أسبوع التربية) يزور فيه الآباء المدرسة ، ويقفون على أعمال التلاميذ ونظام الدرس والتدريس ، ويشاهدون المعارض والمتاحف ، ويقوم التلاميذ عادة بتنظيم الحفلات المختلفة فى الموسيقى والتمثيل والسينما ... إلخ ويشرف التلاميذ بأنفسهم عليها . وترسل بعض المدارس تقريرات شهرية لأولياء أمور التلاميذ مبينة درجة تقدمهم فى المواد المختلفة، وسلوكهم وحالتهم الصحية ، وتشفع هذه التقريرات بملاحظات عن علاقة التلميذ بزملائه ، وعن نشاطه الاجتماعى . وتطلب المدرسة من الآباء المساهمة فى توجيه الأبناء فى سلوكهم ودراساتهم . وتشجع بعض المدارس التلاميذ على أخذ بعض ما يعملونه من الأشغال والرسوم ، والملابس المطرزة إلى المنزل لعرضها على الأسرة ، كما تشجعهم على إحضار بعض المواد من المنزل لعرضها فى معارض المدرسة ، أو متاحفها ، أو استخدامها فى دروس الأشغال والخياطة . وبعض المدارس تكون مكتباتها ومتاحفها مما يحضره التلاميذ ، كمجموعات طوابع البريد ، وصور بعض الشخصيات ، والأوانى الفخارية التاريخية ، وأنواع الملابس أو النقود القديمة ، والكتب التى تناسب التلاميذ .

وتعمل المدرسة على تنمية روح التزاور بين التلاميذ والتعارف بين أسراتهم ؛

كأن يزور ناظر المدرسة أو المدرسون أسرة التلميذ فى بعض المناسبات كعيد ميلاده والأعياد العامة . أو يعودوه فى حالة مرضه ، ويواسوه إذا أصيب بمكروه . وبعض النظار يزور التلميذ ليعرف حالة الأسرة المالية حتى يقدر له ما يمكن من مساعدة لتتمكن من تعليمه . والأسرة من جانبها تتعاون مع المدرسة بتهيئة الجو المناسب للتلميذ لأداء واجباته المدرسية . وإذا كان فى الأسرة كتب ومذياع ومجالس للحديث المثقف وزيارات للآثار ورحلات كانت كل هذه الأشياء مساعدة للمدرسة على تربية الطفل .

ومن واجبات الأسرة احترام أوامر المدرسة . والإشراف على وقت فراغ التلميذ ، للتأكد من إنفاقه فى الصالح ، وعدم اختلاطه بإخوان السوء . وحياة الأسرة تؤثر فى حياة التلميذ المدرسية ، فقد زرت بعض المدارس الابتدائية ، واشتركت مع مجموعة من التلاميذ فى الغذاء ، ولاحظت على أحد تلاميذ هذه المجموعة سلوكاً غير ما يتوقع منه ، كالعنف وعدم اللياقة فى الأكل والحديث مع إخوانه ، وكنت أعرف أن هذا التلميذ من أسرة عريقة راقية ، ولذلك لم أطمئن إلى سلوكه ، فسألت عن حالة الأسرة ، فحدثنى ناظر المدرسة — وكان يعرف الكثير عنها — أن والد التلميذ ووالدته على خلاف ، وأنهما افترقا ، وأن التلميذ يعيش مع والدته ، ويمضى معظم أوقاته مع الخدم وتحت إشرافهم . واستطعت بهذا أن أفسر سلوك التلميذ . ومن هذا المثل يتضح مقدار أثر حياة الأسرة فى سلوك التلميذ بالمدرسة ، وأثر هذا التلميذ فى زملائه .

ومن الحكايات التى تذكر فى الكتب الإنجليزية أن مفتشاً زار إحدى المدارس الأولية ، وبينما هو فى أحد الفصول الدراسية يوجه للتلاميذ بعض الأسئلة فى مادة الحساب لاحظ فى أحد الأركان تلميذاً بدت عليه علامات الضعف والإعياء ، لا يرفع أصبعه إذا سئل التلاميذ ، ولا يجيب جواباً صحيحاً إذا وجه إليه سؤال . وقد استرعى نظر هذا المفتش ما وجد فى عينى التلميذ من بريق الذكاء المتوارى خلف الجفون الذابلة ، فأدرك حينئذ أن فى الأمر سراً ، وأخذ التلميذ من الفصل وسأله عن أسرته وحالته المادية ، وأين يقطن ؟ وعمل الوالد ، وعلاقة أفراد الأسرة بعضهم ببعض . فظهر له أن الوالد من العمال المتعطلين ، وأنه ينفق فى الشراب ما تمنحه له الحكومة من مساعدة مالية ، وأن أمه قد ماتت منذ سنوات وحلت محلها زوج أب قاسية لا تعنى بأمره ، وأن الطفل ينال القليل من الطعام والنوم والراحة المنزلية .

عندئذ فكر المفتش فى إنقاذ هذا الطفل فاتخذه لنفسه ، وجعله تحت

عنايته ورعايته، وضمه إلى أسرته، ولم تمض شهور حتى نشط الطفل وبذ قرناءه .

فهذه القصة ، وكثير غيرها ، يؤيد ما قلناه من ضرورة التعاون بين المدرسة والأسرة ، وأن المدرسة وحدها لا تستطيع أن تقوم بدور التربية ، وأن بعض الأطفال الذين تبذل المدرسة جهداً فى تربيتهم إنما يجدون من حياتهم العائلية عاملا هداماً . وقد لا تستطيع المدرسة التقدم بالطفل إلى الأمام لأن الأسرة تدفع به إلى الخلف .

ونظام الحياة فى مصر ، والتقاليد المدرسية القديمة ، لم تهتم حتى الآن بهذا التعاون بين المدرسة والأسرة ، وإن كانت النموذجيات قد خطت خطوات طويلة فى هذا الاتجاه . وكذلك وضعت وزارة التربية والتعليم نظام التأمين الاجتماعى ، وبمقتضاه تقوم المدرسة بتعويض ما ينقص التلميذ من وسائل الراحة المادية بسبب فقر الأسرة .

موازنة بين التربية المنزلية والتربية المدرسية

تخالف التربية المدرسية التربية المنزلية من حيث نفوذها فى الأطفال ومعاملتها لهم ، وأثرها فى تهذيب أخلاقهم وتكوين عاداتهم ، وتظهر هذه المخالفة فى :

١ — السيطرة فى كل من المدرسة والمنزل

فسيطرة المدرس عادة أقل من سيطرة الوالدين ، لأن الطفل منذ نشأته يرى أن والديه هما اللذان يعولانه . ويقومان بحاجاته ، فيعتقد أنه معتمد عليهما كل الاعتماد ، وأن حاجته إليهما أشد من حاجته إلى غيرهما من مدرس أو غيره . هذا إلى أنه إذا رأى من مدرسه شدة أو قسوة فزع إلى والديه . أما إذا غضب أحدهما منه فإنه يرى ألا منفذ له منه فيسعى لإرضائه .

٢ — المعاملة المدرسية والمنزلية

(ا) إن أساس الحكومة المدرسية العدل والمساواة ، لأن جميع التلاميذ فى الصلة بالمدرس سواء ، فهو يسوى بينهم فى الثواب والعقاب كل بما كسبت يداه ، وأحبهم إليه أصلحهم . أما الآباء فقد تضطرهم الشفقة والعاطفة الأبوية إلى التغاضى عن ذنوب أبنائهم . وعين الرضا عن كل عيب كليلة .

(ب) إن المنزل يعامل الطفل فى أول نشأته بالرحمة والرأفة ، حتى إذا كبر حاسبه على أعماله بدقة وأخذه بشدة ، أما المدرسة فإنها تعلن من أول الأمر نظامها الذى يألفه المتعلم ويخضع له راضياً .

٣ ــ أثر كل من المدرسة والبيت فى التهذيب

من الصعب الحكم بأن أخلاق المتعلم نتيجة لنفوذ المنزل أو المدرسة ، فلكل منهما أثره ، وقد يقوى أحدهما فيتغلب على الثانى . ولكن مما لاشك فيه أن التكوين الأخلاقى الأول للمنزل أسبق من تكوين المدرسة وله أثر فى سلوك المتعلم طول حياته .

٤ ــ التكلف والحرية فى المدرسة والمنزل:

جرت العادة أن يكون التلميذ فى المدرسة متكلفاً فى كل مظاهره وأنه غير طبيعى فى سلوكه وأخلاقه ، بينما تنكشف فى المنزل أخلاقه على حقيقتها ، والمدرسة الحديثة ترمى إلى أن يكون الطفل تلقائياً فى سلوكه وأن يشعر بالحرية الكافية التى تمكنه من أن يسلك سلوكاً طبيعياً لا كلفة فيه ولا تصنع ، حتى تتاح الفرصة لإصلاحه وتوجيهه .

٥ ــ كثرة الفرص لإظهار الميول وتوجيهها

المفروض أن المدرسة هى المكان المعد للتربية ، فيها أخصائيون يخلقون للأطفال الفرص الكثيرة المناسبة للكشف عن ميولهم ، وبذلك يشجعها المدرسون ويوجهونها الوجهة السليمة ، بينما لا يتيسر ذلك إلا فى الأسرات المثقفة التى يعنى الآباء فيها بأبنائهم عناية خاصة .

مراجع الباب الثالث

١ ــ فى التربية لعلى عبد الواحد

2. Education Today, by John Dewey.
3. The School & Society by John Dewey.
4. On Education, by Bertrand Russell.
5. Education, by E. Campagnac.
6. The Group Mind by W. McDougall.
7. Social Groups in Modern England, by Henrey A. Mess.
8. Democracy & Education, by John Dewey.
9. Creative Education & the Future, by Oliver Wheeler.
10. Infant & Nursery Schools, a Report by a Committee, printed by H.M.S.O.
11. The Nursery School, by Margaret McMillen.
12. The Nursery Years, by Susan Isaacs.
13. The Children We Teach by Susan Isaac